بيع فلسطين: تسويق الأدب الفلسطيني باللغة الإنجليزية

نانسي كوفن*

تقديم

هذه المقالة، التي انبثقتْ من دراسة مطوّلةٍ لأدب المقاومة الفلسطينية بعد عام ١٩٦٧، تَعكس اهتمامي المتزايد بتعقيدات عملية تحوُّل الأدب (المترجَم خاصّةً) إلى سلعة استهلاكية. فبدافعٍ من الحساسية السياسية التقليدية في تناول القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة وبريطانيا، يواجِه ناشرو الأعمال الأدبية والسِّير الذاتية والمذكرات الفلسطينية تحدياتٍ فائقةً في سعيهم إلى توزيع بضاعتهم بالطُّرق التي تَضْمن لهم عوائدَ مربحةً. وتختلف هذه التحدياتُ اختلافاً جوهرياً عن تلك التي يواجهها ناشرو الأعمال الأمريكية اللاتينية المترجَمةِ على سبيل المثال، وهي أعمال تتمتع بقسطٍ أوفر بكثير من الاهتمام والتعاطف في الولايات المتحدة.

ثمة افتراضٌ شبه سائدٍ في العالم العربيّ مفادُه أنّ القوى المناصرة للصهيونية تُسيطِر على صناعة الإعلام في الغرب (ولاسيما في الولايات المتحدة) سيطرةً تامةً. غير أني أعتقد أنّ ذلك الافتراض يحمل قَدْراً من المبالغة، إذْ بالرغم من هيمنة التعاطف مع إسرائيل في الولايات المتحدة وبريطانيا، فإنّ بوسع الأصوات الفلسطينية النفاذَ إلى وسائل النشر المكتوب. وقد أشار إدوارد هيرمان مؤخّراً، في مقالةٍ له نُشرتْ في مجلة زِي (Z Magazine) التقدمية، إلى أنّ بدائل الإيديولوجيا السياسية السائدة تَظْهر غالباً في صيغةِ كتب: «نادراً ما تُسمع الأصواتُ النقديةُ عن طريق التلفاز أو مجلات الأخبار الرئيسية والصحف المهيمنة، وينعدم تماماً أيُّ إسهاب أو تكرارٍ لازمَيْن لكي يتجاوز القرّاءُ بُعْدَ ألفتهم بتلك الأصوات وتشتُّتَ مداركهم. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ كتب يسار الوسط تُنشَر باستمرار، ويَفْسح طولُها المجالَ واسعاً لشرح الأفكار الغريبة وغير المألوفة شرحاً مفصّلاً. إلاّ أنّ الشَرَك هنا، بالطبع، هو أنّ معظم كُتُب اليسار تَصْدر عن طريق صغار الناشرين، وأنّ مبيعاتها ضئيلةٌ وقرّاءها قلّةٌ. وكلما ازدادتْ راديكاليةُ موضوعاتها، صغرَ حجمُ قرّائها المتوقّعين»[١].

في هذه المقالة سأختبر الطرقَ والأساليبَ التي تُقدَّم بها النصوصُ الفلسطينيةُ إلى قرّاء الإنجليزية. وأنا مهتمة هنا بالأعمال الأدبية على وجه الخصوص، رغم أنّ بعض النصوص التي أتناولُها بالنقاش لا تندرج عادةً ضمن التعريف التقليديّ لمصطلح «الأدب». فما هي الطرق التي يسعى بها الناشرون إلى تحديد موقع الكتابات الفلسطينية لجمهور الناطقين باللغة الإنجليزية؟ وإلى أيّ مدى يَعكس تغليفُ الأدب الفلسطينيّ وتسويقُه اهتماماتِ الكتّاب أنفسِهم أو اهتماماتِ مجتمعاتهم الأصليّة، في مقابل أذواق القراء الغربيين وأولويّاتهم؟

السبعينيّات

خلال عقد السبعينيات، وبينما أخذتْ عناوينُ الصحف الصادرة في أوروبا والولايات المتحدة تهاجم الفلسطينيين وتَصِمُهم بالإرهاب، كان الإعلانُ عن الأعمال الفلسطينية المترجَمةِ يصفها بـ «الراديكالية» و«الثورية». والسبب أنّ هاتين المفردتيْن كانتا جذّابتيْن وذائعتَي الصيت في تلك الحقبة، ويَسْهل بالطبع تجييرُهما إيجاباً أو سلباً بحسب النوعية المستهدَفَة من القرّاء.

وفي مرحلة أوائل السبعينيات تلك، وهي التي وصفها كلٌّ من إيلاً شوحات وروبرت ستام بأنها «فترةُ الحماس المنقطع النظير للعالم الثالث، وفيها بدا أنّ يساريي العالم الأول ومقاتلي حرب العصابات في العالم الثالث سوف يسيرون متشابكي الأذرع نحو تحقيق الثورة العالمية»[٢]، قامت بعضُ دور النشر البديلة الصغيرةِ الحجم ـ من أمثال «القارات الثلاث» Three Continents و«مطبعة فلسطين الحرّ» Free Palestine Press (التابعة

* ـ دكتوراه في الأدب العربيّ، وأستاذة العربية في جامعة كولومبيا في نيويورك.

١ ـ **Z Magazine**, Volume 12, No. 4 (April 1999), p. 40.

٢ ـ Ella Shohat and Robert Stam: **Unthinking Eurocentrism: Multiculturalism and the Media** (London: Routledge, 1994), p. 26.

لمكتب الإعلام الفلسطينيّ في واشنطن) ـ بإصدار مختاراتٍ شعريةٍ فلسطينيةٍ باللغتيْن، مُطْلقةً عليها وصفَ «أشعار ثورية» أو «شعر المقاومة»[1]. وقد أصدرتْ دار «الطبل والرمح» للنشر The Drum and Spear Press، ومَقَرّاتُها في مدينتَيْ واشنطن في الولايات المتحدة ودار السلام في تنزانيا، في عام ١٩٧٠ مجموعةَ مختاراتٍ من الشعر الفلسطينيّ عنوانُها **عدو الشمس** Enemy of the Sun ضمن حلقاتٍ لها بعنوان «شعراء التحرير». وكان الهدفَ الواضحَ لتلك المجموعة الشعرية هم القرّاء الأفرو ـ أمريكيّون؛ فعلى سبيل المثال، سلّطتْ مقدِّمتُها الضوءَ على أوجه التشابه بين القصائد الواردة في المجموعة وبين أعمال الشعراء السود الراديكاليّين من أمثال أميري بركة (ليروي جونز سابقاً) أو دون لي مؤلِّفِ ديوان **لا تبك بل اصرخْ** (Don't Cry, Scream). وقد ذكر المترجمان نصير عاروري وإدموند غريب، في تقديمهما لتلك المجموعة، أنها مكرَّسةٌ «لإبراز الطابع الإنسانيّ والكوزموبوليتانيّ والثوريّ» للشعر الفلسطينيّ [2]. كما زُيّنتْ بمجموعةٍ من الرسوم الفنية المأخوذة من أدبيات التنظيمات الفدائية الفلسطينية، وضمَّتْ صفحاتُها أبياتاً مهداةً إلى سكّان القارة الأمريكية الأصليين، وكوبا، والأمريكيّين السود، وإلى باتريس لومومبا ـ قائدِ الحركة الوطنية في الكونغو وشهيدِها.

لقد كان تأثيرُ دراسات غسان كنفاني في أدب المقاومة الفلسطينية جليّاً على هذه الأعمال الأدبية المبكّرة. ففي عام ١٩٦٨، أصدرتْ سُلافة حِجّاوي في بغداد مجموعةً صغيرةً من مختارات الشعر الفلسطينيّ بعنوان **شعر المقاومة في فلسطين المحتلة**[3]. وفيها تُرجمتْ إلى الإنجليزية مقتطفاتٌ من كتاب كنفاني الصادر عن دار الآداب عامَ ١٩٦٦، **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة**[4] واتُّخِذتْ مقدمةً لتلك المختارات الشعرية. وفضلاً عن ذلك، ضمّنتْ حِجّاوي الكتابَ العديدَ من القصائد الواردة في دراسة كنفاني تلك. وفي عام ١٩٧٠ صنّف عبد الوهاب المسيري مجموعةً شعريةً بعنوان **عاشق من فلسطين**، وَوَرَدَ في مقدمة تلك الطبعة أنها تضم، «بعد الكثير من التعديلات، بعضَ ترجمات الآنسة سُلافة حِجّاوي» (ص xi).

وفيها ركّز المسيري بشدّة، كما فعلتْ حِجّاوي قبلاً، على الشعراء الفلسطينيين من أراضي ١٩٤٨ الذين ساعد كنفاني في التعريف بهم.

وحين ترجمتْ هيلاري كيلپاتريك روايةَ غسان كنفاني **رجال في الشمس**[5] إلى الإنجليزية ونشرتْها «مطبعةُ القارات الثلاث» في الولايات المتحدة (كما نَشَرتْها في لندن دار هاينمان للكتب التعليمية)، كانت تلك أولَ روايةٍ لكاتبٍ فلسطينيّ بارزٍ تَظْهر بالإنجليزية في الولايات المتحدة ـ بل لعلّها كانت أيضاً الأكثر ديمومة: إذ صدر منها على الأقل سبعُ طبعاتٍ خلال الأعوام العشرين الأخيرة. كما تحظى اليومَ بردّ فعلٍ إيجابيٍّ هائلٍ على موقع أمازون (Amazon.com) الواسع الانتشار على شبكة الانترنت، وهو موقع يحثّ روّاده على نشرِ آرائهم وتعليقاتهم على الشبكة إلكترونياً. وفي العديد من تلك التعليقات تبرز القيمةُ التعليميةُ للرواية موضوعاً أساسياً؛ فعلى سبيل المثال مَنَحَ أحدُ القراء المتحمِّسين الكتابَ خمسَ نجومٍ (من أصلِ خمسٍ كحدٍ أقصى) وأوضح قائلاً: «إنّ كنفاني يكتب بخبرةٍ وصدقٍ عاطفةً. هذه المجموعة من القصص لن تخيّب آمالكم. إنّي أُوصي بها كلَّ مَنْ يهتمّ بأدبٍ حصيفٍ وبمأساة الشعب الفلسطينيّ. إنّ كون إسرائيل قد وَجَدَتْ قدراته [أي كنفاني] الفكريةَ عاملَ تهديدٍ لها إلى درجة قتله، لَيَنبغي أن يكون حافزاً على قراءة هذا العمل المؤثّر»[6].

ولكنْ حين كانت المطابعُ الصغيرة المستقلة تعلنُ تعاطفَها الثوريّ بوضوح آنذاك، بدا في المقابل أنّ دور النشر الكبيرة والمتنفِّذة تشعر بحاجتها إلى إبداء الاعتذار كلما نشرتْ أعمالاً فلسطينيةً جذريّة! ففي عام ١٩٧٣، صدرتْ مذكراتُ ليلى خالد كما رَوَتْها لجورج حجّار، رفيقِها في عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، تحت عنوان **شعبي سَيَحْيا: السيرة الذاتية لثوريةٍ** My People Shall Live: The Autobiography of a Revolutionary[7]، وفيه دلائل كثيرة إلى أنّ خالد وحجّار كانا يهدفان إلى مخاطبة جيلٍ من القرّاء في الغرب زادَتْهم طبيعةُ الفترة راديكاليةً؛ ومن ضمن تلك الدلائل: الإشاراتُ إلى علاقة ليلى خالد الحميمة بالمدرِّسة الأفروأمريكية الآنسة مَكْنايت، «خرّيجةِ مدرسةِ مارتن لوثر كنغ للاّعنف» (ص ٥٣)؛ ونقاشاتُ ليلى المطوّلة مع جاين مارلو، «وهي واحدةٌ من مُحْسِنات اليانكي التقليديات، وقد جاءت

---

١ ـ See, for example: Abdul Wahab al-Messiri, editor: **A Lover from Palestine and Other Poems: An Anthology of Palestinian Poetry**, illustrations by Kamal Boullata (Washington, D.C.: Free Palestine Press, 1970); Rana Kabbani, translator: **Ahmad Zaatar: A Poem by Mahmoud Darwish**, illustrations by Kamal Boullata, calligraphy by Elias Nicola (Washington, D.C.: Free Palestine Press, 1976); A.M. Elmessiri: **The Palestinian Wedding: A Bilingual Anthology of Contemporary Palestinian Resistance Poetry**, illustrations by Kamal Boullata (Washington, D.C.: Three Continents, 1982).

٢ ـ Naseer Aruri and Edmund Ghareeb, editors: **Enemy of the Sun: Poetry of the Palestinian Resistance** (Washington and Dar Es-Salam: Drum and Spear Press, 1970), pp. xli.

٣ ـ Sulafa Hijjawi, translator: **Poetry of Resistance in Occupied Palestine** (Baghdad: al-Jumhuriya Printing House, 1968).

٤ ـ غسان كنفاني: **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٦** (بيروت: دار الآداب، ١٩٦٦).

٥ ـ Ghassan Kanafani: **Men in the Sun and Palestinian Stories**, translated by Hilary Kilpatrick (Washington, D.C.: Three Continents, and London: Heinemann, 1978).

٦ ـ "A Brilliant Book by a Brilliant Man", RRafeedie @aol.com from Riverside, CA, April 22, 1998 posting on Amazon.com (http://www.amazon.com/exec/obidos/ASIN/089410392X/002-4817715-5908668).

٧ ـ Leila Khaled: **My People Shall Live: The Autobiography of a Revolutionary**, edited by George Hajjar (London: Hodder and Stoughton, 1973).

وقد تُرجِم إلى اللغة العربية تحت عنوان **شعبي سيحيا: مذكرات خاطفة الطائرات ـ كتبها كما روتها له جورج حجار** (بيروت: دار النهار، ١٩٧٣).

إلى صُور لتعلّم 'اللاجئين' [الفلسطينيين] السباحةَ والرسمَ والألعابَ والمَرَحَ» (ص ١٠٨). وإنّ لقـــاءاتٍ من ذاك النوع، وأخرى مع مجموعة من الطلاّب الأجانب «النازعين إلى مسرح حرب العصابات أسلوباً 'لتحقيق الثورة'» (ص ١٢٢) ستتيح لمؤلّفيْ كتاب **شعبي سيحيا** فرصةَ انتقاد النزعات الإيديولوجية السائدة بين العديد من قطاعات القرّاء الغربيين، سعياً إلى اقناعهم بإعادة النظر في أفكارهم وقناعاتهم السياسية.

ملاءمةُ الكتّاب الفلسطينيين للمزاج السائد في السوق الغربية اليوم هي التي تحدد النشر، لا شعبيةُ العمل الأدبي بين القراء العرب

ولكنّ دار النشر المتعددة الجنسية «هودر وستَوْتِنْ» التي أصدرتْ مذكرات ليلى خالد طلبتْ في المقابل من جون باغوت غلوب (المعروف بـ «غلوب باشا») كتابةَ مقدمة لـ **شعبي سيحيا**، وذلك كما يبدو بهدف احتواء النص وتخفيف وَقْع خطابه الثوريّ. إذ بعد أنْ أخذ غلوب باشا يؤكّد للقرّاء أنّ الآراءَ السياسية المعبَّر عنها في الكتاب «تعكس بصورةٍ كبيرةٍ الآراءَ السطحيةَ لأحزاب اليسار الفلسطينيّ المتطرف»، راح يبدي رحابةَ صدره بقوله «إنّ الفلسطينيين قد تعرّضوا للكثير من القسوة والظلم بحيث لم يعد مدهِشاً أن تتطور لديهم عقدةُ الاضطهاد» (ص ٨)! وبعد أن امتدح ليلى خالد لبساطتها وصراحتها، أبدى الملاحظةَ التالية: «إنّ شجبنا الشامل للخاطفين، بوصفهم مجرمين وحشيين، يَضْعف إلى حدٍّ مّا حين نقرأ أنّ هذه الخاطفة الشهيرة بَكَتْ حين سمعتْ نبأ اغتيال جون كينيدي» (ص ٩)!

وثمة مثال شبيهٌ بما سبق ذكره. فحين نشرتْ «شركة تايمز للكتب» (وهي ناشرُ جريدةِ **نيويورك تايمز**) المقابلةَ الصحفيةَ المطوّلة التي أجراها الصحافيُّ الفرنسيّ إيريك رولو مع صلاح خلف (أبو إياد) على شكل كتابٍ بعنوان **وطني... أرضي** My Home, My Land وجد رولو نفسه مضطراً على ما يبدو إلى إضافة التوضيح التالي في مقدمته: «إنّ هذا الكتاب، رغم ثرائه في كشف خفايا العديد من الأمور، ليس عملاً موضوعياً ولن يكون بمقدوره ذلك. ولكنّ النص يشكّل وثيقةً قيّمة وفريدةً من نوعها، ستسهم ـ بل شك ـ في فهم أبعاد المشكلة الفلسطينية»[١]!

ما قبل «السلام»

بدأتْ شعبيةُ حركات التحرر في العالم الثالث، بحسب طرح «إعجاز أحمد»، في الانحسار في أواسط السبعينيات بين أوساط اليسار في الولايات المتحدة وأوروبا حين انتهت كثيرٌ من حروب التحرر الوطنيّ الثورية، وبدأتْ تبرز ملامحُ الأنظمة النفعية والبيروقراطية في حقبةِ ما بعد الاستعمار[٢]. في مناخ كهذا، وحين راحت أسواقُ الشعر الفلسطينيّ الراديكاليّ تتضاءل في الولايات المتحدة، بدأ إصدارُ ترجمات الكتّاب الفلسطينيين ينتقل إلى الجامعات وإلى الناشرين ذوي النزعات الليبرالية الإنسانية ـ وبخاصة أصحاب «التعددية الثقافية» multiculturalism ـ بدلاً من الناشرين اليساريين أو الراديكاليين بشكل خاصّ.

في الولايات المتحدة، نشأ خطابُ التعددية الثقافية في بادئ الأمر خلال الفترة التي تَلَتْ حملة الحقوق المدنية، وكان ذلك بمثابة تحدٍّ لمشكلات العنصرية والمركزية الأوروبية والتفرقة الجنسية؛ وقد توسّع هذا الخطابُ اليومَ ليشمل قضايا من نوع حقوق مثليي الجنس وكبار السنّ والأطفال والمعوّقين، بل امتدّ ليشمل أحياناً حقوقَ الحيوان. ويركّز أنصارُ التعددية الثقافية على القيم الليبرالية الإنسانية للتسامح واللاعنف والتعايش المشترك، بيد أننا في أغلب الأحيان نلحظ غياباً واضحاً لمفهوم العدالة من هدف «التعددية الثقافية» المعلَن ـ وهو هدفٌ جديرٌ بالثناء لولا ذلك الغياب لأنّه يقول بـ «الانسجام العالميّ، والتفاهم الذي يمكّننا من الوجود المشترك في عالم تقطنه أقوامٌ متعددةٌ ومختلفة»[٣]. وبالرغم من أنّ دليلاً تعليميّاً واسع الانتشار (لتدريس أطفال المدارس الابتدائية والمتوسطة في الولايات المتحدة تدريساً متعددَ الثقافات) يَسْتشهد بقول الماركسية ـ الفوضوية الأمريكية المعروفة إيما غولدمان: «إنّ شعارنا يجب ألاّ يكون 'فلنسامحْ بعضنَا بعضاً'، بل بالأحرى 'فلنعرفْ بعضَنا بعضاً'» (ص ٣٠٧)، فإنّ رغبة غولدمان في تغيير العالم بدلاً من مجرد تفسيره غائبةٌ من رؤية التعددية الثقافية تلك.

إنّ الولايات المتحدة وبريطانيا (كما بقية العالم) تشهدان بصورةٍ متزايدةٍ ظاهرةَ خلطِ مفهومَي الرأسمالية والهمّ الاجتماعيّ المسؤول. فعلى سبيل المثال، تُسوِّق محلات «ذي بودي شوب» (The Body Shop) ـ وهي شركة متعددة الجنسية لبيع الصابون والعطور وأدوات التجميل ـ منتوجاتها من العالم الثالث بإعلانها مبدأ «التجارة، لا المساعدات» (Trade, not aid). إنّ الناشرين الليبراليين ذوي التعددية الثقافية من أمثال مطبعة بيكون Beacon Press ـ التي لا تستهدف الربح ـ ينأون اليوم بأنفسهم عن أية شبهة راديكالية، كما يبدو واضحاً من تصريح مديرة المطبعة المذكورة وَنْدي ستروثمان في معرض تبريرها لالتزام شركتها بالنشر المتعددِ الثقافاتِ: «...إنّ هدف النشر المتعدد الثقافات بالنسبة إلينا ليس تقديم كتب عن اللاتينيين لأجل اللاتينيين فحسب، او كتب عن المرأة من اجل المرأة وحدها. بل إنّي اؤمن بانه ينبغي علينا نشرُ كتبٍ متعددة الثقافات لأننا نحتاج ان نتعلّم واحدنا عن الآخر. إنّني لستُ مثليّة الجنس، بيد انّي اعتقد انني اصير مواطنةً افضل حين اتفهم قضايا مثليّي

---

١ ـ Abu Iyad with Eric Rouleau: **My Home, My Land: A Narrative of the Palestinian Struggle**, translation fron the French by Linda Butler Koseoglu (New York: Times Books, 1981).

٢ ـ Aijaz Ahmad: **In Theory: Classes, Nations, Literatures** (New York: Verso, 1992), p. 33.

٣ ـ Pamela L. Tiedt and Iris M. Tiedt: **Multicultural Teaching: A Handbook of Activities, Information and Resources**, 3rd edition (Boston: Allyn and Bacon, 1990), p. 5

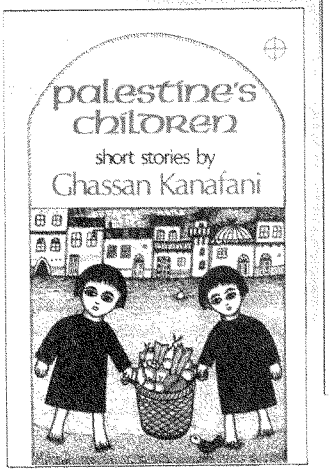

الجنس، وذلك، جزئياً، من خلال قراءة كتبنا»[١]. ومع أنّ ستروثمان تقرر أنّ «نشر كتبٍ أناس لم يكن بمقدورهم حتى عهدٍ قريبٍ النفاذُ إلى أجهزة الإعلام السائدة إنما هو أمر جيد من المنظور الأخلاقيّ» (ص ١٥٠)، فإنها سرعان ما تشير إلى أنّ أعمالاً من ذلك النوع تَلْقى إقبالاً أيضاً في سوق القرّاء: «لقد أصدرنا كتاب (الروائي الأفروأمريكي) جيمس بالدوين **مذكرات ابن البلد** Notes of a Native Son عام ١٩٥٤... أكثر من مائة وسبعين ألف نسخة قد بيعت، وما زلنا نبيع ما بين خمسة إلى ثمانية آلاف نسخة في السنة الواحدة» (ص ١٤٥).

إنّ الأطروحة القائلة بأنّ الأعمال الأدبية يتوجب فيها تعليمُ القارئ بالإضافة إلى ترفيهه لَهِيَ، بلا شك، موضعُ اعتبارٍ عند العديد من الكتّاب الفلسطينيّين أيضاً. فقد وصف غسان كنفاني الأدبَ والفنَّ بأنهما «وسيلةُ تنويرٍ وتوسيع أفقٍ وكشفِ حقائق»[٢]. وقال إميل حبيبي: «أريد دائماً أن أمنح قارئي شيئاً ما... معرفةً جديدة، لا أريد لكتاباتي أن تكون محضَ خيال»[٣]. وحين تحدّث كنفاني وحبيبي عن تثقيف القرّاء وتنويرهم، كانا عازمَيْن على حثّ الفلسطينيين خاصةً والعرب عامةً على تبنّي مواقف نضالية، والمشاركةِ الفعّالةِ في الكفاح من أجل حقوق الشعب الفلسطينيّ. وعلى النقيض من شعوبٍ أخرى وقعتْ تحت الاستعمار في الهند وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والبحر الكاريبيّ، حيث كان التعليم يُمارَسُ بالإنجليزية أو الفرنسية في أغلب الأحيان، بقي الكتّابُ الفلسطينيون ورثةً للأعراف الثرية والطويلة العهد للغة العربية.

وبصورة عامة، فإنّ أعمال الأعلام الروائية الفلسطينية (مثل **المتشائل** لإميل حبيبي **وما تبقى لكم** لغسان كنفاني) قد ظهرتْ بالإنجليزية إلى حد كبير بفضل جهود الشاعرة الفلسطينية سلمى خضرا الجيّوسي، التي أسّستْ «بروتا» PROTA (مشروع الترجمة من العربية) في مطلع الثمانينيّات. ولقد قامت بروتا بحوالى ستة عشر مشروعاً: منها ثماني ترجمات لأعمال فلسطينية، ومن ضمنها عملٌ موسوعيٌ بعنوان **مختارات من الأدب الفلسطينيّ المعاصر** Anthology of Modern Palestinian Literature كانت الجيوسي قد راجعتْه ونشرته عام ١٩٩٢[٤]. وقد أضحتْ ترجمات بروتا ـ بمقدماتها التي تمتاز بالبحث الوافي والطابع العلميّ، والتي تركّز على الخصائص الأدبية والأسلوبية للأعمال ـ مادةً أساسيةً بين المواضيع التي تقرأ في أقسام الدراسات الشرق أوسطية في الكليات الجامعية.

بإمكاننا استشفاف أحد الأمثلة على التحول المبطّن والمليء بالدلالة الذي قد يحدث أثناء عملية إحضار نص فلسطيني إلى السوق الأمريكيّة، من خلال استقراء ترجمة باربرا هارلو الممتازة لمجموعة من أعمال غسان كنفاني القصصية بعنوان **أطفال فلسطين** Palestine's Children[٥]. فقد صدرت النسخةُ العربية الأصلية بمناسبة السنة العالمية للطفل عام ١٩٨٤ تحت عنوان **أطفال غسان كنفاني**[٦]، وعلى غلافها رسمُ طفلٍ غاضبِ القسمات بحاجبيْن متثلّميْن وقبضةٍ متوعّدة، يحمله طائرٌ شبيهٌ بالهدهد. وفي المقابل اختارتْ «مطبعةُ القارات الثلاث»، التي أصدرتْ نسخة **أطفال فلسطين** الإنجليزية، صورةً للغلاف تمثّل طفلَيْن مسالميْن أنيسَي الملامح يحملان سلةً عامرةً بالفاكهة والخضروات (!)، وهي رسمٌ ـ للفنّان نفسه ـ كان مُرْفَقاً بإحدى القصص الواردة ضمن النسخة العربية. وهكذا فإنّ اختيار الغلاف على هذا النحو يبدو مناسباً لعائلةٍ غربيةٍ ليبراليةٍ تبحث لصغارها عن نصوصٍ متعددةِ الثقافات. بيد أنّ صورة طفلَيْن يحملان غذاءً وفيراً ـ وإنْ ظهرتْ مسحةٌ خفيفةٌ من الحزن على وجهيْهما ـ تخفي المضمون الأكثر حدةً للنص. وسوف يجد قارئُ النصّ الإنجليزيّ نفسَه وجهاً لوجه مع الملاحظة التي أبداها روبرت ستام، ومؤدّاها أنّ الشكل الشامل حقاً لما أسماه بـ «تعددية الثقافات المتعددة المراكز» polycentric multiculturalism: «لا يمكنها أن تكون لطيفةً "، هكذا وببساطة، وكأنها حفلةُ شايٍ أو حفل شواءٍ في الضواحي. إنّ على أية تعددية ثقافية جوهرية أن تعترف بالواقع الوجوديّ للألم

١ ـ Wendy Strothman, "Multiculturalism at One Press: The Beacon Experience", **Scholarly Publishing**, Volume 24, No. 3 (April 1993), pp. 144 - 5.

٢ ـ غسان كنفاني: **في الأدب الصهيوني**، سلسلة أعمال غسان كنفاني ١٦ (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية ومؤسسة كنفاني الثقافية، ١٩٨٧، الطبعة الأولى ١٩٦٦).

٣ ـ Imil Habibi: "Literature and Politics: A Conversation with Emile Habiby (Interview conducted by Allen Douglas and Fedwa Malti-Douglas)", **The Arabic Novel since 1950: Critical Essays, Interviews and Bibliography**, ed. Issa J. Boullata. Mundus Arabicus Volume 5 (Cambridge, MA: Dar Mahjar, 1992), p. 42.

٤ ـ Salma Khadra Jayyusi, editor: **Anthology of Modern Palestinian Literature** (New York: Columbia University Press, 1992).

٥ ـ Ghassan Kanafani: **Palestine's Children**, translated by Barbara Harlow (Washington, D.C.: Three Continents Press, 1984).

٦ ـ غسان كنفاني: **أطفال غسان كنفاني** (بيروت: دار الفتى العربي ومؤسسة غسان كنفاني الثقافية، ١٩٨٤).

والغضب بل وللغيظ العارم. ذلك أنّ الثقافات المتعددة، كما يوحي مصطلحُ 'تعددية الثقافات'، لم تتواجد تاريخياً ضمن علاقات التساوي والاحترام المتبادل»[1]!

ترويج أعمال الكاتبات الفلسطينيات المترجمة باعتبارها نصوصاً في دراسات المرأة يَحْجب أحياناً معالجتها لمسائل المجتمع الفلسطيني ككل

ما بعد «السلام»

وإلى أن بدأتِ الحرارةُ تدبّ في أوصال «عملية السلام»، لم تكن سوى قلّةٍ من المذكّرات الفلسطينية قد نُشرتْ كاملةً باللغة الإنجليزية، رغم أهمية هذا النوع من الكتابات في الإنتاج الأدبيّ الفلسطينيّ. فقد لاحظتْ سلمى الجيوسي أنّ المذكرات والسرد ذا الطابع الشخصيّ ربما كانا «أكبر شاهدٍ على عصر النكبة»[2]. كما أنّ كتابها **مختارات من الأدب الفلسطيني المعاصر** يحتوي على تشكيلة لا بأس بها من هذا النوع من الأعمال، ومن ضمنها كتاباتٌ لرشاد أبو شاور ومعين بسيسو ومحمود درويش وخليل السكاكيني وهشام شرابي وغيرهم. إلاّ أن المذكرات الكاملة التي وَجَدَتْ طريقَها إلى النشر بالإنجليزية على شكل كتبٍ منفصلةٍ كانت إمّا أعمالاً اشتُهرتْ بسوء صيت أصحابها، وإمّا صادرةً عن دور النشر الصغيرة المستقلة[3].

غير أنّ المصافحة الشهيرة في حديقة البيت الأبيض عام ١٩٩٣ بين ياسر عرفات وإسحق رابين قد جلبتْ معها طباعةَ مذكرات كلٍّ من حنان عشراوي وأبو مازن (محمود عبّاس) وبسام أبو شريف (بالتعاون مع الجاسوس الإسرائيلي السابق عوزي محنيمي)[4]؛ وثلاثتُها، بالطبع، جاءت لتَعدَ قرّاءها بوجهة نظرٍ «مطّلعةٍ على بواطن الأمور» للمقدّمات التي أدّتْ إلى اتفاقيات أوسلو. وإذْ لم يعد الخطابُ الثوريُّ سلعةً رائجة، فقد راحت الحملاتُ الإعلانيةُ اليومَ تروّج لكتاب **أفضل الأعداء** The Best of Enemies لبسام أبو شريف ومحنيمي بوصفه «النضالَ الجديدَ والأشدَّ صعوبةً: ألاّ وهو الكفاح من أجل السلام»!

وفي حالة فلسطين، فإنّ مفهوم السلام، كتسويةٍ تَضْمن إنهاء الاحتلال الإسرائيليّ، قد استُبدل على الساحة الدولية بخطابٍ سيكولوجيٍّ حول السلام باعتباره عمليةً جاريةً ينبغي استمرارُها رغم كافة العقبات. فالهدف من المفاوضات بين الطرفين، بحسب الخطاب الجديد، لم يعد بالضرورة الحصولَ على تسوية، بل الحفاظ على «زخم» عملية السلام. وهكذا تصبح كافةُ المسائل الجوهرية مؤجّلةً حالياً لمصلحة مفهومٍ ضبابيٍّ يسمى بـ «إجراءات بناء الثقة». (وبالمناسبة، فإنّ قاموس **وبستر** للغة الإنجليزية يورد المعنى الثانويّ التالي لكلمة «ثقة» confidence: وهو «الاحتيال عن طريق الوعود الكاذبة!»).

وإذ راحت أجهزةُ الأعلام الغربية تَطْفح بالحديث عن «عملية السلام وإجراءات بناء الثقة»، فقد أصبحت الكتاباتُ الفلسطينية ـ وبشكل مطّرد ـ تسوَّق بوصفها «ذاتيةً» و«حميمةً» بدلاً من أن تكون «راديكاليةً» و«ثورية». فإعلاناتها حالياً تركّز على الجوانب العاطفية والنفسية للنصوص، وتؤكّد التزامَ الكاتب بمبادئ التصالح والانسجام، في الوقت الذي تقلّل فيه من التركيز على المفردات السياسية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أخذتْ أعمالُ الكتّاب الفلسطينيين الأقلّ شهرةً «تُكْتَشَف» صالحةً للنشر بناءً على ملاءمتها للمزاج السائد في السوق الغربيّة، بدلاً من شعبيتها بين القرّاء الفلسطينيين والعرب. ومن هذا المنظور، تقدَّم الروايةُ الأولى لفلسطينيةٍ تقيم في مدينة واشنطن باعتبارها «صرخةً مؤثّرةً من أجل السلام... وعملاً مهماً»[5]!

وفي حين هيمنتْ كتاباتُ الرجال على الأدب الفلسطينيّ المنشور بالإنجليزية خلال السبعينيّات وأوائل الثمانينيّات، تغيّرتْ تلك الموجةُ اليومَ بصورة حاسمة. إذ منذ عام ١٩٨٥، وهو تاريخ ظهور رواية **الصبّار** لسحر خليفة[6] لأول مرة بالإنجليزية، نُشرتْ على الأقل إحدى عشرة رواية لكاتبات فلسطينيات، بينها ثلاثُ روايات لليانة بدر[7]. وكما هو مُتوقّع، فإنّ الترويج لكتابات المرأة الفلسطينية يَجْنح، بطبيعة الحال، إلى الإشارات المتكررة إلى وضع النساء في مجتمع تقليديٍّ أبويّ. ويَكتب عددٌ كبير من هؤلاء الكاتبات بالإنجليزية أساساً[8]، كما

---

١ - Robert Stam: "Eurocentrism, Polycentrism, and Multicultural Pedagogy: Film and the Quincentennial", **Late Imperial Culture**, edited by Roman de la Campa, E. Ann Kaplan and Michael Sprinker (New York: Verso, 1995), p. 118.

٢ - Jayyusi, introduction, **Anthology of Modern Palestinian Literature**, p. 66.

٣ - See, for example: Fawaz Turki: **The Disinherited: Journal of a Palestinian Exile** (New York: Monthly Review, 1972, 1974); Leila Khaled and George Hajjar **My People Shall Live** (1973); Abu Iyad and Eric Rouleau: **My Home, My Land** (New York: Times Books, 1981); Ramonda Tawil: **My Home, My Prison** (New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1980); and Raja Shehadeh: **Samed: Journal of a West Bank Palestinian** (New York: Adama Books, 1984).

٤ - Hanan Ashrawi: **This Side of Peace: A Personal Account** (New York: Simon & Schuster, 1995); Mahmoud Abbas: **Through Secret Channels: The Road to Oslo** (London: Garnet 1995; Paul & Co., 1997); Bassam Abu-Sharif and Uzi Mahnaimi (contributor): **The Best of Enemies: The Memoirs of Bassam Abu-Sharif and Uzi Mahnaimi** (Boston: Little, Brown, 1995).

٥ - From the cover of Hala Deeb Jabbour: **A Woman of Nazareth** (New York: Interlink, 1989 & 1992).

٦ - Sahar Khalifah: **Wild Thorns**, translated by Trevor Le Gassick and Elizabeth Fernea (New York: Olive Branch Press, 1989).

٧ - Liyana Badr: **A Compass for the Sunflower**, translated by Catherine Cobham (London: The Women's Press, 1989); **A Balcony Over the Fakihani: Three Novellas**, translated by Peter Clark with Christopher Tingley (New York: Interlink, 1993); **The Eye of the Mirror**, translated by Samir Kawar (London: Garnet, 1994).

٨ - Soraya Antonius: **The Lord** (New York: Holt, 1996); **Where the Jinn Consult** (London: Hamish Hamilton, 1987); Hala Deeb Jabbour: **A Woman of Nazareth** (New York: Interlink, 1989 & 1992); Yasmin Zahran: **Beggar at Damascus Gate** (Sausolito: Post-Apollo Press, 1995).

تفعل الشاعرة سهير حماد، التي وُصفتْ مجموعتُها الشعرية **وُلدتُ فلسطينيةً، وُلدتُ سوداءَ** Born a Palestinian, Born Black[1] من قبل مجلة **فيكشن دايجيست** Fiction Digest بأنها «كلماتٌ ملتهبةٌ من شاعرة فلسطينية ـ أمريكية حول ما يعنيه أن تكون امرأةً ملونةً في مجتمع عنصريّ»!

لقد أدّى رواجُ كتابات المرأة إلى تزايدٍ مطّردٍ لكاتبات لم يكنّ قد عُرِفْن من قبلُ بين القرّاء الفلسطينيين والأمريكيين على حد سواء. ولكنّ الوفرة النسبية لكتابات المرأة الفلسطينية المتاحة حالياً بالإنجليزية لم تُسْفِر في الوقت نفسه عن جعل قصص سميرة عزّام القصيرةِ الواسعةِ الانتشار بالعربية في متناول القرّاء في الولايات المتحدة وبريطانياً، إلا ضمن بعض المختارات الكبرى[2]. كما أن الأعمال الأكثر عصريةً ومواكبةً للأحداث، كأعمال سحر خليفة، لم تترجَمْ بعدُ؛ وأقصد روايتَيْ: **باب الساحة** التي تقع أحداثُها إبّان الانتفاضة، و**الميراث** التي تَسْتكشف فترة ما بعد اتفاقيات أوسلو[3].

خاتمة

خلال السبعينيّات، ازدهرتْ أكثرُ من ألفيْ مطبعة صغيرة في الولايات المتحدة، وحمل الكثيرُ منها برنامجاً راديكالياً، كما نَشَرَ عددٌ من هذه المطابع (وإنْ كان محدوداً) ترجماتٍ لكتّاب فلسطينيين ملتزمين. ولكنْ حين أخذتِ السياسةُ في أوروبا والولايات المتحدة بالانتقال إلى اليمين خلال الثمانينيّات والتسعينيّات، واجهتْ تلك المطابعُ انحساراً في مبيعاتها. وعلاوةً على ذلك، فإنّ الاندماجات المتتالية بين دورُ النشر والمكتبات التجارية الكبيرة والسائدة، ونشوءَ تكتلاتٍ ضخمة في الإعلام والاتصالات، والتغيراتِ التي طرأتْ على قوانين الضرائب الخاصة بالشركات، تضافرتْ جميعُها لتجعل قدرةَ المطابع الصغيرة المستقلة على التنافس في الأسواق أمراً بالغَ الصعوبة[4]. واليوم تكاد مطابعُ الجامعات والشركات الضخمة أن تكون هي الطريقَ الوحيدَ الممكن لأعمال النشر.

وفي حين قامت المطابعُ الجامعيةُ بإنتاج عددٍ من ترجمات الأدب العربيّ الفلسطينيّ، فإنّ تركيزها المستمرّ على الصفات الأدبية والأسلوبية لهذه الأعمال لا يُسهم في مساعدة القارئ على فهم الخلفية التاريخية والسياسية للنص. كما أنّ التحيُّزَ الشديد الحاليّ لترويج الأعمال الأدبية للكاتبات الفلسطينيات باعتبارها نصوصاً في دراسات المرأة يَنْزع إلى تأكيد مشكلة التمييز الجنسيّ بشكلٍ خاص، في الوقت الذي يَحْجب فيه في كثير من الأحيان معالجةَ هذه النصوص للمسائل الأعمّ للمجتمع الفلسطينيّ ككل.

وحين تقرِّر دُور النشر الكبرى إصدارَ كتابات فلسطينية، فإنها تسعى عموماً وراء الكتّاب أصحابِ الشهرة : وقد كان ذلك في السبعينيّات يعني «الإرهابيين»، بينما أصبح في التسعينيّات يعني «صانعي السلام»! وهكذا صدر كتابُ حنان عشراوي **هذا الجانب من السلام** This Side of Peace عن «سايمون وشوستر»، وهي ذراعُ النشر لشركة الإعلام العملاقة ڤياكوم (التي تملك ـ ضمن أشياء أخرى ـ شركة «پاراماونت» للإنتاج السينمائي و«بلوك بَسْتِرْ» ڤيديو وشبكة «أم تي ڤي» التلفزيونية الموسيقية). وقد بلغ الدخلُ الإجماليُّ لـ ڤياكوم ١٣,٢ بليون دولار أمريكيّ عام ١٩٩٧، كما حظي كتابُ عشراوي بمراجعات نقديةٍ واسعة في المجلات والصحف المؤثّرة. ولا شكّ أنّ معارضة إدوارد سعيد لاتفاقيات أوسلو وانتقاداته للسلطة الفلسطينية قد حَظيتْ بتغطية إعلامية كبيرة أيضاً، كما أنّ شهرته الواسعة تَضْمن لأعماله مستمعين على الدوام؛ فعندما صدرتْ مجموعةٌ من مقالاته الصحفية على شكل كتاب بعنوان **السلام والساخطون عليه** Peace and its Discontents[5] عام ١٩٩٦ عن دار نشر ڤينتاج ـ أحدِ فروع دار راندوم للنشر التي تُعدُّ واحدةً من أكبر دور نشر الكتب الإنجليزية في العالم ـ نُشرتْ مراجعاتٌ نقدية له في مجلة **الإيكونوميست** وفي ملحق **نيويورك تايمز بوك ريڤيو**. بيد أنّ المجلات النقدية الأدبية ذات التأثير غالباً ما تتجاوز الكتابات الفلسطينية (كما هو حال رواية **بحيرة وراء الريح**[6] ليحيى يخلف الصادرة حديثاً). صحيح أنّ في مقدور بعض الأصوات الفلسطينية أن تحظى بالنشر بالإنجليزية، ولكنها بشكلٍ عامٍّ تلقى الإهمال مصيراً. فلئن جلبتِ المراجعةُ النقديةُ لكتابٍ ما بعضَ الشهرة ـ وإنْ كانت تلك المراجعةُ سلبيةً ـ فإنّ الصمت في المقابل يَضْمن أن لا يَعرَف بالكِتاب إلا قلةٌ من الناس، وأنّ أقلّ مِنْ هؤلاء سيتسنّى لهم قراءته.

نيويورك

---

١ ـ Suheir Hammad: **Born a Palestinian, Born Black** (New York: Writers & Readers, 1998).

٢ ـ Jayyusi: **Anthology of Modern Palestinian Literature**; Miriam Cooke and Roshni Rustomji-Kerns, editors: **Blood into Ink: South Asian and Middle Eastern Women Write War** (New York: Westview Press, 1994); and Nur and Abdelwahab Elmissiri: **A Land of Stone and Thyme: Anthology of Palestinian Short Stories** (London: Quartet, 1996).

٣ ـ سحر خليفة: **باب الساحة** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠) **والميراث** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٧).

٤ ـ J. A.. Sutherland: **Fiction and the Fiction Industry** (London: University of London, 1978), p. 200; Edward Herman, opcit., p. 41.

٥ ـ Edward Said: **Peace and its Discontents** (New York: Vintage, 1996)

٦ ـ Yahya Yakhlif: **A Lake Beyond the Wind**, translated by Christopher Tingley and M. Jayyusi (New York: Interlink, 1998). وكانت الرواية في الأصل قد صدرتْ عن دار الآداب، بيروت، عام ١٩٩١.